الانسان فى الحياة

يشغل الانسان فى هذه الحياة ، المكان الاول بين المخلوقات جميعاً ويستأثر بالمزايا ، التى أهلته لتسخير الكثير من قوى الطبيعة ، وتهيئة أسباب الحيوان وكتابه ، والفتك بالمعتدى منه ، واستئصال شأفة الآفات .

والأديان والحضارات والعلوم والفنون وما اليها ، كانت ثمرة وجود الانسان فى الحياة ، أو نشأت ونظمت لكى تضىء له السبيل ، وتحمل له المشعل فى ظلمات الحياة ، فيتخطاها ويمضى فى طريقه مسيطراً هذا الكون العجيب . وحسبنا أن نسجل هنا رأى عالم جراحة كبير هو الدكتور الكسيس كارل ، الجراح العالم وحامل جائزة نوبل الطبية سنة ١٩١٢ لنجاحه فى وصل أوعية الدم بعضها ببعض ونقل الأعضاء وزرعها وقد درس الانسان أكثر المخلوقات غموضاً واخضعاً كتابه « الإنسان ذلك المجهول » واصفاً : ماهو جسدك وما هى وظائفه وما يعينك على أن تكون صحيح البدن والعقل ويدلك على ما يضرك قال ول ديورانت مؤلف قصة الفلسفة : « إن هذا الكتاب هو أعمق كتب الأدب الأمريكى الحديث وأعظمها قيمة وأحفلها بالحكمة » . وقال ستيفن وايز : « سوف يكون له أثر عظيم فى تفكير الناس أجيالا طويلة » .

يقول المؤلف : ان المرء يمتاز عن سواه بقامته وهيأته ومحياه ويدل مظهره على مافى جسمه وعقله من قوى ومالهما من صفات . فالرجل الذى كان فى عصر النهضة (بعد القرون الوسطى) هدوءاً دائما الا خطار والمحن والذى تعهد اكتشافات جاليليو بالحماسة البالغة التى أولاها روائع ليوناردو دافنشى لايشبه الرجل الحديث الذى يتقلب فى ظلال الترف ويقصر تأملاته على أفلام السينما الساخنة ويرهف سمعه للمذياع .

إن كل عصر يسم بميسمه الكائنات البشرية التى تعيش فيه ولقد بدأنا نشهد هذه الأجيال الجديدة من البشر التى صاغت حياتها السيارات والراديو وفنون الرياضة . فهيئتنا تشكلها ماتألفه أبداننا من عادات بل تشكلها أفكارنا المألوفة أيضاً . وصور وجوهنا وأفواهنا وأساريرها تحددها الأحوال التى تألفها العضلات وهذه الأحوال إنما تعتمد على حالة العقول . فقسمات وجهك تصبح وأنت لاتدرى عامرة بشعور كيانك كله وشهواته وأمانيه . ولابرى الذى يقرأ ما فى صفحة هذا الوجه رذائل الكائن الحى أو فضائله وذكاءه أو غباءه ومايحتال فى إخفائه من عاداته فحسب بل يرى فيه أيضاً تكوين جسده وماهو عرضة له من الأمراض البدنية والعقلية . إن جمال الشباب مستمد من ذلك الانسجام الطبيعى بين أسارير الوجـــه . أما جمال الشيخوخة — وما أندره — فمنبعه الروح .

يتوقف مظهر العظام والعضلات والجلد والشعر على تغذية الأنسجة وهذه التغذية إنما ينظمها تركيب مصل الدم ، أو قل : نشاط الغدد وجهاز الهضم . ومظاهر الجلد مرآة تنعكس عليها أحوال الغدد الصم والمعدة والأمعاء وجهاز الأعصاب . وثمة تفاوت عظيم فى وظائف الأعضاء بين الرجل الطويل النحيل والرجل القصير الممتلىء . فالطويل عرضة للاصابة بالسل والقرحة ، والقصير للهوس المتردد والسكر والروماتزم والتقرس . ولقد كان الأطباء القدماء فى تشخيصهم للأمراض يعلقون أهمية عظيمة على المزاج والطباع ، وكانوا على حق . ففى وجه كل امرىء صورة جسمه وروحه .

ويكاد الجلد يكون حدوداً منيعة مضروبة على دنيا مستورة محجوبة ، وهو قادر على إتلاف الميكروبات التى تعيش على سطحه ، مستعيناً بمواد تفرزها غدده . ولا ينفذ فيه الماء ولا الغاز ، ولكن فى استطاعة بعض الكائنات الدقيقة القاتلة أن تجتاز الحدود . وظاهر الجلد معرض للضوء والريح والرطوبة والجفاف والحر والبرد . أما باطنه فيتاخم عالماً من الماء دافئاً محروماً من الضوء تعيش فيه الخلايا كأنها أحياء البحر . ويستمد الجلد مادته من طبقاته المتجددة من الخلايا التى تتكاثر ببطء وإلى غير نهاية . وتموت هذه الخلايا ولا يزال بعضها متصلا ببعض كأنها لبنات على سطح ، وهى كمثل هذه اللبنات لا تفتأ الريح دائبة تأخذ منها . ولا يفتأ الجلد يعيضه لبنات جديدة مما تذهب به الريح .

وتحس كريات اللمس الشائعة تحت الجلد كله بالضغط والألم والحر والبرد ، فما كان منها فى اللسان فهو يتأثر بطعم الطعام وبالحرارة أيضاً ، وتؤثر ذبذبات الهواء فى جهاز الأذن المعقد . وتستجيب شبكة أعصاب الشم

الروائح . ومن أجل ذلك كانت سمة الفرد تابعة لسعة سطحه البادي لأن المخ يشتغل بالرسائل المستديمة التي يتلقاها من العالم الخارجي . ومن أجل ذلك ينبغي أن لا ندع عاداتنا الجديدة ونحن لا ندري تغير من حالة هذا الغلاف . فنحن مثلا لا ندرك تمام الإدراك ما للتعرض لأشعة الشمس من أثر في نمو الجسم كله فيخلق بنا إذن أن لا نقبل الاسراف بغير حساب في دبغ جلودنا بلفح الشمس .

إن الإنسان لا يستطيع أن يفهم الكائن الحي بدراسة جثمانه الميت لأن أنسجة الموتى قد حرمت دمها الجاري وعمل وظائفها . والعضو الذي يفصل عن الوسط المغذي الذي يعيش فيه لم يعد له وجود . وفي الجسم الحي يجري الدم في كل مكان فتستحم كل الانسجة فيما يحتوي عليه من سائل شفاف . فلكي نفهم هذا العالم الباطن كما هو يجب أن ندرس أعضاء الحيوان الحي والانسان كما نراها أثناء الجراحات لا كما تتفق لنا في أبدان الموتى وينبغي أن لا نفرق بين الخلايا وبيئتها كما يفعل علم التشريح فان كل الخلايا الحية تعتمد في حياتها اعتماداً مطلقاً على الوسط الذي تكون مغمورة فيه وانها لتغير هذا الوسط تغيراً لا ينتهي وتتغير به . والحق أنها جزء منه وليس لها بغيره حياة .

يتألف الدم من حوالي ٢٥ إلى ٥٠ ألف بليون خلية حمراء و ٥٠ بليوناً من الخلايا البيض وهذه الخلايا كلها معلقة في سائل هو المصل ويحمل الدم لكل نسيج من أنسجة الجسم غذاءه المناسب ويقوم في الوقت نفسه مقام الأنابيب التي تلقي فيها الفضلات المتخلفة عن الأنسجة الحية ويحتوي الدم كذلك على مواد كيميائية وخلايا قادرة على ترميم الأعضاء كلما مست

الحاجة . وإن خواصه هذه فى الحق لعجيبة ، فان الدم فى أدائه هـــذه الوظائف المدهشة يعمل مايعمل السيل الذى يكون مايحمل فى عبابه من الطمى والشجر سبباً فى إصلاح مايتداعى على حفافيه من معاهد العمران .

وهذا المصل ، الذى هو زاخر بمواد أكثر مما يظن ، يحتوى على مواد زلالية وأحماض وسكريات ومواد دهنية ومفرزات من كل الغدد والأنسجة وعلمنا بطبيعة أكثر هذه المواد ووظائفها الشديدة التعقيد علم ناقص . وفى الدم فرق هذا أجسام مضادة للميكروبات ، تبدو حين يكون لزاماً على لانسجة أن تحمى نفسها من غزو الجراثيم . يضاف إلى ذلك أن فى هذا لمصل مادة زلالية تدعى « الفيبرين » تلتصق خيوطها من تلقاء نفسها بالجروح فتكفها عن النزف .

ويعرف فى الجسم بأسره هذا الفيبرين من مواد الغذاء . وليست أغشية الهضم بمساحاتها الواسعة جداً مرشحاً لهذه المواد فحسب ولكنها تقوم منها أيضاً مقام المصنع الكيمائى . وتفرز الأغطية المخاطية التى تغطى باطن الجوف مقادير عظيمة من السوائل وتمتص مثلها فتأذن خلاياها للاطعمة بعد هضمها أن تنفذ إلى الجسم ولكنها تمنع الميكروبات التى تزخر بها قناة الهضم أن تنفذ . وهذا العدو المخوف لايقل خطره ولايزول فى الحلق والأنف تعيش الميكروبات الفيروسية وفى اللوزتين تثوى الجراثيم السبحية وجراثيم الدفتريا وتتكاثر ميكروبات الحمى التيفودية والدوسنطاريا بسهولة فى الأمعاء وسلامة أغشية التنفس والهضم لها سيطرة عظيمة على مقاومة الجسم للامراض المعدية وعلى توازنه وكفايته واتجاهاته الفكرية

وتشد عدد التناسل أزر القوى البدنية والعقلية والروحية جميعا . فما من خصى أصبح فيلسوفا عظيما قط ، أو عالما كبيرا أو حتى مجرما خطيرا وتفرز الخصيتان والمبيضان فى الدم مواد معينة تحمل لأفعالنا كافة ميزاتها الخاصة ، فافراز الخصيتين يورث الجرأة والضراوة والقسوة وهى السجايا التى تميز ثور الصراع من الثور الذى يجر المحراث فى الحقل . ويؤثر إفراز المبيضين فى كيان الأنثى أثرا مشابها

والفلذة من النسيج إذا وضعت فى قارورة احتاجت إلى مقدار من السوائل يعادل حجمها ألفى مرة كى لا تقتلها فضلاتها السامة فى بضعة أيام . وعلى هذا لو أن الجسم البشرى أحيل عجينة وزرع زرعا صناعيا لتطلب ٢٢٥٫٠٠٠ لتر من السوائل المغذية ولكن نظرا للانكال الخارق الذى امتزجت به الأنسجة المسؤولة عن دورة الدم فى الجسم وعن ثروته من المواد الغذائية ؛ وعن نفض الفضلات منه على الدوام نجد أنسجتنا تستطيع أن تحيى فى سبعة لترات أو ثمانية من السوائل بدلا من ٢٢٥٫٠٠٠ لتر

ويسرى الدم فى الأنسجة بسرعة تكفى لمنع تركيب الدم من أن يتأثر بما يلقى فيه من الفضلات ويقدر كل عضو مقدار الدم اللازم له وسرعة جريانه فيه ، وذلك بمعونة الأعصاب التى تسيطر على أوعيته الدموية . فالمخ وسائر الاعضاء يتطلب كل منها ضغطا خاصا للدم الجارى فيه ويتوقف أمر سلوكنا ونوع أفكارنا على حالة دورتنا الدموية توقفا كبيرا . وكل المجهود البشرية رابحة لحالة هذا الوسط الغذائى

وعند مايعود الدم من الفضلات والأعضاء إلى القلب تدفعه نبضات القلب إلى شبكة الشعيرات الدموية الهائلة فى الرئتين إذ تأخذ كل كرة

حمراء حظها من أوكسجين الجو وفى الوقت ذاته تنفض فى الجو الخارجى بما فى أكسيد الكربون بحركات التنفس وتتم تنقية الدم فى الكلى حيث تنفصل منه بعض المواد خارجة مع البول ، وحيث تقدر هى مقدار الأملاح الضرورية للعمل ويجرى عمل الرئتين والكلى بكفاية عظيمة وإن نشاطهما البالغ هو الذى يهيء للبيئة المائية اللازمة الأنسجة الحية أن تكون قليلة فى مقدارها كل هذه القلة ويهيء للجسم البشرى أن يكون مدجا خفيف الحركة

وفى الدم فوق مافيه من أوكسجين الهواء ومنتجات الهضم فى الأمعاء ، نوع آخر من المواد المغذية مكون من إفرازات الغدد الصم التى من خواصها العجيبة أن تصنع من مفردات الدم الكيميائية مركبات جديدة . ومن عمل المركبات أن تغذى بعض الأنسجة وتنبه بعض الوظائف ويشبه هذا الأسلوب فى أن يجدد الشيء نفسه بنفسه أسلوب تربية الإرادة بجهد الإرادة نفسها فالغدة الدرقية والغدتان فوق الكليتين ، والبنكرياس مثلا تصنع مركبات جديدة هى الثيروكسين والأدرنالين والأنسولين على التوالى ، فهى مصانع كيميائية حقيقية . وتصنع بهذه الطريقة مواد لاغنى عنها فى تغذية الخلايا والأعضاء وفى شتى وجوه النشاط البدنى والعقلى . وهذه الظاهرة تشبه فى غرابتها سيارة تستطيع بعض أجزائها أن تصنع الوقود الذى تستهلكه أجزاؤها الأخرى ، وأن تصنع المواد التى تعجل حرق هذا الوقود ، بل أن تصنع خواطر المهندس الميكانيكى نفسه أيضا وإلى هذه الغدد يعود الفضل فى حياة الجسم وما ينطوى عليه من شتى ألوان النشاط

فالإنسان أولا كيان قائم على التغذية ، فهو مركب من حركة دائبة بين مواد كيميائية وتجرى المادة جريانا دائما بين خلايا الجسم كلها تهب الأنسجة

ما تتطلبه من الطاقة وتمدها المواد الكيميائية التي تبنى لأعضائنا ومزاجنا كيانها المؤقت الرقيق

هذا وليست وظائف الجسم من دقة التحديد كأعضائه وإنما هي أقل منها في هذه الناحية بكثير . فالهيكل العظمي مثلا ليس دعامة للجسم وحسب ، بل يؤلف أيضا جزءا من أجهزة الدم والتنفس والغذاء . مادام يستعين بنخاع عظامه على صنع الخلايا البيض والحمر . والكبد تفرز الصفراء وتفتك بالسموم والميكروبات وتختزن الغشاء الحيواني وتتعلم تمثيل السكر في كيان الجسم كله وتنتج الهيبارين . وعلى غرار ذلك لا يقتصر البنكرياس ولا الغدتان فوق الكليتين ولا الطحال على وظيفة واحدة بل لكل منها وجوه مختلفة من النشاط وتكاد تشاطر الجسم كل ما يجري فيه من أمور وليس العضو محدودا بحدوده الظاهرة ولكنه يصل الى حيث تصل المادة التي يفرزها ، فكل غدة تبسط ظلها على الجسم كله بافرازها الخاص : فلو فرضنا أن المواد التي تنتجها الخصيتان كانت زرقا لشاع اللون الازرق في جسد الذكر كله ، ولكانت الخصيتان نفسهما أشد من سواهما زرقة ، ولانتشر هذا اللون الخاص في كل الانسجة والاعضاء حتى الغضاريف والعظام

ويحدد العضو نفسه بطرق تعد غريبة على العقل . فما هو بالمصنوع من مادة دخيلة عليه كما يصنع البيت ولا هو ببنيان مرصوص من الخلايا ، إنه بالبداهة مكون من خلايا كما يتكون البيت من لبنات ولكنه يولد من خلية واحدة حتى كأن البيت قد استوى بناؤه من لبنة واحدة ، لبنة سحرية طفقت تصنع سواها من اللبنات وهذه اللبنات لا تنتظر تصميم المهندس ولا قدوم البنائين ليتجمع بعضها على بعض وتنشىء الجدران ، وهي أيضا تتحول

فتصير ألواحا للنوافذ وبلاطا للسقف وفحما للتدفئة وماء للطبخ وحماما .
وكذلك ينمو العضو بوسائل تشابه الوسائل المعزوة إلى الجنيات فى أساطير الأطفال ويتخلق من خلايا كأنها تعلم ماسيكون عليه الصرح المنشود وتخاط له من محتويات مصل الدم مواد البناء بل توجد له العمال أيضا

والجسم غاية فى القوة يعد نفسه للاجواء من زمهرير القطبين إلى قيظ المناطق الحارة ويقاوم كذلك الحرمان من الطعام . وأهوال الجوع والتعب والشدائد والإنسان أصلب الحيوان عودا وإنا لنديم مقارنة الجسم بالآلات فى غير وعى فقوة الآلة تعتمد على المعدن الذى صنعت منه ولكن قوة الإنسان مستمدة من مرونة أنسجته وتماسكها وقدرتها على النمو لا على التهافت والفناء وقوتها على التغير كلما تغيرت الظروف وليست مقاومة الإنسان للمرض واحتماله للعمل والمتاعب وطاقته على السعى وتوازن أعصابه سوى آيات لسموه على سواه

وهذه المزايا وإن كانت وراثية قد تنمحى حتى فى أعظم الامم وأغناها ويدل تاريخ المدنيات الغابرة على أن مثل هذه الكارثة محتمل الوقوع ويرهب الفرد المنحدر من سلالة أمة عظيمة إذا لم يبتل بالانحلال مناعة طبيعية من التعب والخوف فهو لايفكر فى صحته ويتجاهل وجود الأطباء وينظر إلى نفسه كأنما قضى عليه أن يناضل ويتعب ويفكر ويقهر وهو يواجه البيئة التى يعيش فيها بمثل البساطة التى يثب بها الحيوان الضارى على فريسته غير شاعر بتكوينه المعقد أكثر من شعور هذا الحيوان

إن كثيرا من الناس ليسوا أصحاء وإن هم لم يكونوا مرضى وآل مر ذلك إلى نقص يشوب نشاط بعض الأنسجة فى أجسامهم فقد يكون إفراز

هذه الغدة أو ذاك الغشاء المخاطي دون الكفاية أو فوقها . وقد تكون أجهزتهم العصبية مرهفة الاحساس أو لاتكون أنسجتهم من القدرة على مقاومة العدوى بحيث ينبغي أن تكون وتجلب هذه النقائص على مثل أولئك الاشخاص شقاء كبيرا وسيكون من يمر في المستقبل على طريقة ما التحريض الزائد للانسجة والأعضاء على أن ينسجم بعضها مع بعض في النمو حسنا قد أدى للبشر أكثر مما أدى باستير نفسه

وللجسم وحدته في المرض كما أن له وحدته في الصحة فهو يمرض جميعا إذا مرض ولا يبقى أي انحراف يصيبه مقصوراً على عضو واحد لايتعداه ولقد كان من آثار الفكرة التشريحية القديمة للجسم البشري، أن انساق الأطباء إلى النظر إلى كل مرض كأنه وقف على العضو الذي يصيبه وقلما استطاع أن يفهم هذا الجسم إذا اعتل سوى أولئك الاطباء الذين يعرفون الانسان تفصيلا وإجمالا في عقله وبدنه على السواء

يدخل في تركيب المراكز المخية سوائل تحتوي على مفرزات الغدد والانسجة التي تشيع في البدن كله وكذلك يكون كل عضو ممثلا في قشرة المخ السمراء فاذا سمم الدم وسائله الشفاف من إفرازات الغدتين فوق الكليتين غلب على نفس المريض فتورها وكل هذا يدرك كيف تتأثر شخصية الانسان بأمراض الكبد والمعدة والأمعاء ويتضح من ذلك أن خلايا الأعضاء تتغذى في سوائل الجسد مواد معينة تؤثر في وظائفه العقلية والنفسية

وتؤثر الحصبة أثراً عميقا في قوة العقل وقدرته . وعقول الشعراء والفنانين والقديسين وكذلك الغزاة الفاتحين هم عامة من أصحاب القوى

الجنسية العظيمة ويحدث استئصال الغدد الجنسية بعض التطور فى قوى العقل ويبدو أن الإلهام يعتمد على أحوال خاصة فى الغدد الجنسية والطب إذا لم يدرك بغيته فيه العقل فلو ظفر دانتى ببياتريس نضارت خليلته فلربما قدمنا « الكوميديا الإلهية » آية الشعرية ومن المعروف أن الافراط الجنسى يعوق نشاط العقل ويبدو أن الذكاء لكى تكتمل قواه يحتاج الى غدد جنسية كاملة النمو يظاهرها قدح مؤقت للشهوة

فاذا ألف المرء عواطف الحسد والبغض والخوف أصبح فى قدرتها أن تحدث تغيرات عضوية وعللا حقيقية فآلام النفس وتباريحها تزلزل الصحة وربما الاعمال الذين يجهلون كيف يكافحون الهموم يموتون صغاراً وتسيطر العواطف على انبساط الشرايين الصغيرة أو انقباضها بوساطة الاعصاب التى تنظم الدورة الدموية فهى مصحوبة إذن بتغيرات فى هذه الدورة فالسرور يضرج الوجه حمرة والفزع يجعله شاحبا وذلك أن الظرف المؤثر إما أن يهيج افراز الغدد أو يبطله أو يغير تركيبه الكيميائى . وقد قام الدليل على أن الصدمة النفسية قد تسبب تغيرات واضحة المعالم فى الدم . ويورث التفكير نفسه ألوانا من الاذى للبدن وتنشىء فينا الحياة الحديثة واضطرابها الذى لا ينتهى حالات فى العقل تصيب المعدة والامعاء باضطرابات عصبية وعضوية وتؤدى الى نقص التغذية وتتحكم جراثيم الامعاء فى الدورة الدموية وثمة التهابات شتى فى الكلى والمثانة ليست الا آثارا بعيدة لأسبابها من جراء اضطرابات قديمة تخامر العقل والنفس ومثل هذه الامراض تكاد تكون شهيرة فى طوائف المجتمع حيث مناهج الحياة أكثر بساطة وحيث القلق تنابا أقل وضوحا ومثل هؤلاء أولئك الذين يحافظون على سكينة نفوسهم فى

صخب الحياة فهم بمنجاة من كل اضطراب عصبي أو عضوي فالإنسان إنما يفكر ويخترع ويحب ويتألم ويعجب ويصلي بعقله وأعضائه جميعا

وجهود العقل تنميها الرياضة . والذكاء ينبغي أن يصاغ بالتعود على التفكير المنطقي . فكل إنسان يولد وقوى عقله تختلف عن قوى سواه ، ولكن أيا كان أمر هذه القوى الكامنة من قوة أو ضعف ، فهي في حاجة إلى الرياضة المستمرة . فقوى العقل ينميها التعود على التفكير المنظم ، ودراسة المنطق ، وخضوع العقل للنظام وقوة ملاحظة الأشياء وعلى نقيض ذلك كان مما يعوق نمو العقل تلك الملاحظات الخاطفة وتلاحق المؤثرات وفقر المرء إلى التفكير المرتب ويؤثر أيضا نمو الذكاء في بعض عادات المعيشة والطعام ولعل التخمة والإفراط في الألعاب الرياضية يمنعان نمو العقل فالرياضيون عامة ليسوا على حظ كبير من الذكاء ومن المحتمل أن يكون العقل يتطلب لكي يصل إلى أقصى نموه سلسلة من الظروف لم تجتمع إلا في عصور معينة. فماذا كان منهاج حياة أولئك الرجال الذين عاشوا في العصور المجيدة من تاريخ المدنية ؟ وماذا كانوا يأكلون ؟ وكيف كانوا يتعلمون ؟ اننا نكاد نجهل كل الجهل سر نشأة الذكاء ومع ذلك فنحن نؤمن بأن عقول الأطفال يمكن تنميتها بتمرين الذاكرة وبشتى الرياضات التي تمارس في المدارس الحديثة !

وللعباقرة على ما وهبوه من قوى الملاحظة وسعة الإدراك مزايا أخرى كالبصيرة والخيال المبدع وبهذه البصيرة يتعلمون أشياء يجهلها سائر الناس فالقائد الحق من قادة الشعوب لا يحتاج الى اختبارات نفسية في اختيار أتباعه بل هو يقدر الرجل قدره في لمح البصر ويدرك فضائله ورذائله والعالم

العظيم يتبع بغريزته السبيل الذى يؤدى به الى الكشف عن مجهول والمعرفة التى يمتاز بها الأطباء العظماء. فى الحاب ارضاهم فى بعض الاحيان إنما تنبع من هذا الينبوع وهذه الظاهرة كانت تسمى يوما ما إلهاما

والإرادة والذكاء عملان متضايقان فى أرقى البشر تهذيباً وحضارة

ومن الارادة والذكاء تنشأ كل قيم الأخلاق وكل امرىء يولد على قدر محدود إما صالحا أو طالحا أو بين بين ولكن الأخلاق يمكن أن تنمى كالذكاء بالتعليم والنظام وقوة الارادة فالخير يعادل الاحسان والعدل والجمال والشر يعادل الأنانية والخسة والقبح ولكى يحافظ المرء على استواء عقله وبدنه يجب عليه أن يفرض على نفسه نظاما تخضع له. ويجب على كل انسان أن يدرك ضرورة اخضاع نفسه لمثل هذا النظام. والمجهود من ارادته هو .

ان الذكاء والارادة والخلق متقاربة النسب أشد تقارب ولكن الاخلاق أهم كثيراً من الذكاء . فاذا عدمتها أمة من الناس بدأ كيانها الاجتماعى كله يتقوض والجهود الساعية الى تهذيب الاخلاق لم تنل ما هى خليقة به من العناية . فيجب أن تدرس مسائل الأخلاق بطريقة ايجابية كما يدرس الذكاء ومثل هذه الابحاث لا يمكن القيام بها فى معمل ولا غنى عن دراستها فى البشر أنفسهم ولكن هذه المجهود الاخلاقية تقع فى حيز الملاحظة العلمية دون ريب

إننا حين نلاقى ذلك الشخص النادر الذى يسير فى الحياة سيرة يستلهمها من مثل خلق أعلى . لا يسعنا الا أن نتجه الى طلعته فان الجمال الخلقى ظاهرة نادرة تسترعى تلفت النظر ولا ينساها المرء أبدا . وهذا النوع من الجمال أشد أثراً

من جمال الطبيعة وهو يجعل للذين رزقوا من نفحاته العلوية قوة سحرية خفية للسر ويشعى قوة الذهن وينشر السلام بين البشر ويمكن المدنية أكثر مما يمكن لها العلم والفن

ان عاطفة الجمال مركبة في فطرة البشر من أدنى درك في سلم الهمجية الى أعلى درج فالانسان يسره أن يعمل أشياء أوحت له بها نفسه . وفي أوربا تجسد فنانين بين الطهاة وقطاع الحجر وصناع الأحذية والميكانيكيين ، وأولئك الذين يصبون الفطائر على أشكال جميلة وفرق دقيق والذين يفارقون الحديد ليصنعوا منه الأبواب الفخمة — يحسون من نفوسهم الابداع مايحسه عظماء النحاتين والموسيقيين

ويظل نشاط حاسة الجمال كامنا في معظم الناس لأنهم انقلبوا فصاروا آلات فالعامل يقتصر على صنع مفردات من العمل ، ولا يتاح له أن يصنع الشيء كاملا أبدا بل لا يؤذن له أن يستعمل ذكاءه إن الصناعة تحرم على المرء كل لون من ألوان نشاط عقله الذي يمكن أن يمده كل يوم بمتاع . وقد ارتكبت المدنية الحديثة خطأ كبيرا ، حين ضحت بالعقل في سبيل المادة ، ويتفاقم أمر هذا الخطأ لأنه لم يجد من يثور عليه ولأن الناس قد هان عليهم أن يقبلوه كما تقبلوا الحياة الضارة بالصحة في المدن الكبيرة وكما تقبلوا أن يسجنوا في المصانع وكيفما كان فان أولئك الذين يجدون في عملهم أثارة من الشعور بالجمال أكثر سعادة من أولئك الذين لا يعملون الا لكي تستهلكوا ما ينتجون ان الجمال كامن في كل مكان وهو يفيض من الأنامل التي تصب آنية الفخار أو تنسج الحرير أو تنحت الرخام أو ترتق فتوق لحم البشر وتراه في جداول جالينوس الرياضية كما تراه في تجارب باستير وهو للذين يكشفون

الغطاء عن مستقره معين سعادة لا يغيض .

وقلما تجد في الرجل من أهل هذا العصر سمات البشرة الروحانية أو الروح الدينية ، فأغلب الناس لا يرى الكائنات الا مناحف ديانات بائدة والنشاط الديني ليس سوى إلمام عام من يتجه بالانسان نحو قوة تسيطر على هذا العالم انه ضرب من الصلاة لم تقيد صورته أو نحت عن الجمال المطلق وهذا النشاط سخي كل السخاء فهو يمد الانسان بقوة كامنة في النفس . ونور في الروح . وسكينة لا يعبأ بها الزمن

هناك بون بعيد بين قوة أجسادنا على البقاء ، وامراع مناصرها الى التحول فالانسان مكون من مادة رخوة قابلة للتغير متهيئة للانحلال في بضع ساعات ومع ذلك فلو كان قد صنع من الخولاذ لما كان أطول بقاء . وهو خير من الحيوان بكثير في الملاءمة بين نفسه والظروف المتبدلة والتقلبات الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية ويعود مثل هذا الاحتمال الى طريقة النشاط الخاصة التي تتخذها أنسجته وأخلاطه فبدلا من أن يتهافت الجسم فانه يتبدل وترتجل أعضاؤنا على الدوام وسائل نواجه بها كل موقف جديد .

فاذا استؤصل نصف الغدة الدرقية ازداد حجم النصف الباقي ، وكانت زيادته أكبر مما يلزم بوجه عام . واستئصال كلية واحدة يليه تضخم الأخرى ، ولو أن إفراز البول يمكن أن تكفله كلية واحدة سليمة . وإذا لم يكف إفراز غدة ما ، فان الغدد الباقية تزيد من نشاطها لتعوض إفراز الغدة المعطلة . واذا اختلت الكليتان ارتفع

ضبط الدم فى الشرايين كى يدفع مقداراً أكبر من الدم خلال المرشح المختل .

وكل عنصر من عناصر الجسم يتشكل ليوائم سائر العناصر وكذلك تفعل كلها بعينها على ذلك ارتباطها جميعاً بالسوائل العضوية والجهاز العصبى . ويبدو أن كل جزء يدرك حاجات الجسم كله فى الحاضر والمستقبل فيعمل على أساس ماتقضيه ويشعر الجسم بالمستقبل شعوره بالحاضر فاذا ماأشرف الحمل على غايته أخذت السوائل تتدفق الى أنسجة الشفرتين والمهبل فتصبح هذه الأنسجة رخوة مطاطة وتجعل مرور الجنين فيها ممكناً بعد بضعة أيام . وفى الوقت نفسه تضاعف الغدد الثديية خلاياها ثم تشرع فى عملها قبل الولادة . وكذلك يتهيأ الثديان لإرضاع الطفل وينتظرانه . ومن الواضح أن كل هذه الاعمال تمهيد لحادث مقبل .

وتظل الأنسجة تمهد للمستقبل طوال حياة الجنين فالأجزاء التى تتكون منها العين مثلا تتعاون على هدف معين وان يكن هدفاً مستقبلا فينشأ جزء من سطح المخ يتكون منه عصب البصر وشبكية العين ويتحول الجلد الذى يغطى هذه الشبكية الناشئة تحولا عجيباً فيشف حتى يؤلف القرنية والعدسة البلورية ويؤسس هذا الجهاز المبصر العظيم الذى نسميه العين . فبأية وسيلة تؤثر الشبكية المستقبلة فى الجلد فتجعله يصنع عدسة قادرة على ابراز صور الدنيا الخارجة على أطراف أعصابها

وأمام العدسة تشكل القزحية نفسها على صورة غشاء مثقوب يتسع ثقبه أو يضيق تبعا لشدة الضوء. يضاف الى ذلك أن شكل العدسة يهيء نفسه بنفسه كي يستطيع الرؤية القريبة أو البعيدة وصلة هذه الأجزاء بعضها ببعض عالا يمكن ايضاحه

إن صلة الأعمال العضوية بعضها بعض تصبح ظاهرة عقب النزف ففي البداية تنقبض جميع أوعية الدم فيزداد حجم مايبقى فيها من الدم نسبيا ، وبذلك تحتفظ الشرايين بضغط يكفي لاستمرار دورة الدم ، ويشعر المصاب بظمأ شديد ؛ فتنفذ سوائل الأنسجة خلال جدران الأوعية الشعرية وتغزو مجرى الدم ، كما أن الدم يمتص السوائل التي تدخل المعدة ، ويستعيد حجمه الأصيل ، ثم يستمد الخلايا الحمر من مستودعاتها الاحتياطية في الأعضاء التي تختزن فيها وفي النهاية يأخذ نخاع العظم في صنع خلايا حمر يكمل بها تجديد الدم . وتصارى القول أن أجزاء الجسم جميعا تشاطر في هذه الظاهرة

فاذا أصاب الجلد أو العضلات أو أوعية الدم أو العظام أذى ، هيأ الجسم نفسه في الحال ليلائم الحالة الجديدة ويجري كل شيء كما لو كان الجسم يتخذ سلسلة من الخطوات كي يصلح الفساد الحادث ، وكما حدث في تجديد الدم تنهض إلى العمل أجهزة مختلفة المكان متحدة الهدف . فإذا قطع شريان انبثق منـــه الدم بغزارة وانخفض الضغط الشرياني وأحس المصاب بغشية مفاجئة ، ثم يقل النزف ويتكون في

الجرح غشاء من الفيبرين وعندئذ ينقطع النزف وخلال الأيام التالية التالية تغزو الخلايا البيض وخلايا الأنسجة هذا الغشاء وتدأب على إقامة جدار الشريان

واذا انكسرت جارحة من جوارح الجسم فان الأطراف المصنونة من العظام المصدوعة تمزق العضلات وأوعية الدم . وسرعان ماتحاط بغشاء دموى من الفيبرين ثم تنشط الدورة الدموية فتتورم الجارحة المصابة وتفيض على العضو الجريح المواد الغذائية اللازمة لتجديد الأنسجة وتتجه كل الجهود نحو الإصلاح فتصير الأنسجة إلى الحالة التى ينبغى أن تكون عليها لتؤدى نصيبها من العمل المشترك فتتحول مثلا قطعة من العضل قريبة من موضع الكسر الى غضروف ويستحيل هذا الغضروف فيما بعد الى نسيج عظمى ويحدث خلال هذا الاصلاح عدد عظيم من الظواهر الكيميائية والعصبية والدموية والخلوية . هذه الظواهر كلها متصل بعضها ببعض ، ويبدأ الدم الذى يسيل من الأوعية ساعة الإصابة، أعمال التجديد الفسيولوجية وتتلاحق الظواهر ناشئا بعضها عن بعض

ان علمنا بهذه الخطوات التى يتخذها الجسم نحو الشفاء ، هو الذى خلق الجراحة الحديثة ولو لم يكن من الجسم هذا السعى فى سبيل البرء لما استطاع الجراحون أن يعالجوا الجروح اذ لاسلطان لهم على

أسباب الشفاء ، وانما يقتصرون على توجيه هذه الأسباب الى تعمل عملها من تلقاء نفسها

على أن ثمة عوامل لاتجدي فيها هذه الأسباب المصلحة أية جدوى فرض الزهري مثلا أحد هذه العوامل فهو لايترك فريسته مختارا أبدا وهو يستقر فى الجلد أو أوعية الدم أو المخ أو العظام فلا تقوى خلايا الجسم ولا أخلاطه على قتله ولا يسلس الزهري قياده للعلاج الطويل والسرطان كالزهري لايجد من الجسم مقاومة فهذه الأورام قريبة الشبه بالانسجة الطبيعية حتى تجد الجسم لايشعر بوجودها ، وأما أعراضها حين تظهر فليست الا نتائج مباشرة لافاعيل الورم السيئة ، أو منتجاته السامة أو اتلافه عضوا مهما أو ضغطه على عصب من الاعصاب

ان البيئة تسم الكائنات البشرية بوسمها الذى لايمحى ، ويؤدى النشاط العنيف الذى يبديه العضل ايضا الى تطورات دائمة ، فالرياضيون يكتسبون قوة ومنعة ومرونة لايمكن ان يظفر بمثلها اى رياضى محفوف بالترف الذى تهيئه له الجامعات الحديثة

لقد كان بقاء الإنسان فى الازمان الغابرة يرجع كله الى قدرته على مطابقة نفسه لما يحيط به اما المدنية الحديثة فقد استطاعت بمعونة علم الصحة والعيش الناعم والمستشفيات والاطباء والممرضات ان تبقى على حياة كثير من البشر الضعاف البنية ويساهم هؤلاء الضعفاء وذراريهم مساهمة كبيرة فى اضعاف الجنس كله . ولعل الاخلق بنا ان ننبذ هذا

النوع الزائف من الصحة ونصرف جهودنا الى طلب العافية الطبيعية .

ويبدو ان عمل هذه الاسباب المصلحة ينبه كل وظائف الاعضاء فالإنسان يصل الى اقصى نموه حين يكون عرضة لعوادى الحر والبرد وحين تكون وجبات طعامه وافرة حينا وزهيدة حينا آخر وحين يبذل جهدا جهيدا لكى يظفر بطعامه ومأواه . فقد كتب عليه ان يروض عضلاته وان يتعب نفسه ويريحها وان يناضل وان يتألم وان يسعد وان يحب وان يبغض وان ارادته لتتطلب ان يتعاقب الجهد عليها والراحة وينبغى له ايضا أن يكافح اخدانه او يناضل نفسه . لقد خلق لمثل هذه الحياة كما خلقت المعدة لهضم الطعام . فاذا ماتمت وتكاثرت اساليب مطابقته لما يحيط به بلغت رجولته غاية تمامها ونحن نعلم اى قوة فى البدن والخلق انفرد بها اولئك الذين خضعوا منذ طفولتهم لنظام حكيم والذين عانوا بعض الحرمان وراضوا انفسهم على ماحاق بهم من الشدائد.فالمرء اذا خف كساؤه وكان عليه ان يصون حرارة جسمه بالرياضة العنيفة، تعمل كل اجهزته البدنية عملا كثيرا متواصلا . وعلى نقيض ذلك ترى هذه الاجهزة تظل هامدة اذاماالتقى المرءالجو البارد بالفراء وبالملبس الدافىء وبجهاز تدفئة الهواء فى السيارةالمغلقة او بجدرانالغرف المدفأة بالبخار . ان رجل العصر لاتضرب الريح جلده قط فليس عليه ان يذود عن نفسه الثلج اوالمطر او الشمس مدة ساعات . وقد كانت الاجهزة المسؤولة عن تنظيم

حرارة الدم والأخلاط البدنيـــة فى العهود الماضية تظل فى نشاط متواصل من جراء كفاحها عادية الحر والبرد. أما اليوم فقد أصبحت فى عهود مستديم

وإذا عاش المرء عيشة أكثر تشظفا وأشد عناء استرد قوة نفسه وبسالتها فينبغى أن نستبدل باطراد الحياة ولين العيش فى المدارس عادات أقرب إلى الرجولة . فالمرء حين يطابق نفسه لما يحيط به من النظم تلحقه تطورات واضحة فى جهازه العصبى وفى غدده الصم ، وفى عقله فيصيب الجسم بذلك حظا أوفر من الكمال ونصيبا أعظم من القوة وقدرة أسمى على اقتحام مصاعب الحياة .

والانسان يميل بطبعه إلى إشباع شهواته . كشهوة الخمر مثلا وشهوة السرعة وشهوة التغيير على الدوام. ولكن إشباع هذه الشهوات إشباعا كاملا يفضى إلى الانحلال فعليه اذن أن يروض نفسه على السيطرة على جوعه وعلى نزواته الجنسية وعلى كسله وعلى كلفه بالخمر وعلى حاجته إلى النوم

ان رجل العصر اما مفرط فى النوم واما مفرط تفريطا فهو لا يعد نفسه لمطابقة ما يختلف عليه فى هذا الامر . وخير له أن يعود نفسه على أن يظل يقظا حين تدركه الرغبة فى النوم فإن مقاومة النوم يحرك أعضاء تنمو قوتها بالتمرين وهى تقضى أيضا ببذل مجهود من الارادة . وهذا

المجهود وكثير من أمثاله قد قضت عليه مناهج الحياة فى العصر الحديث

ان الفرد والجماعة تضعفهما شدة الفاقة وخطر الثراء كخطر الفاقة فالفراغ مهلكة للفقراء والاغنياء جميعا. فالسنيمات والحفلات والراديو والسيارات والالعاب الرياضية لاتصلح أن تكون عوضا عن العمل الحكيم. وثم شرطان أساسيان فى رقى الانسان هما شىء من العزلة والنظام وفى وسع كل انسان أن يروض نفسه على هذه الشروط. ففى طاقة كل امرىء أن يرفض ارتياد سنيمات معينة أو الاصغاء لبعض اذاعات الراديو وقراءة بعض الكتب أو الصحف ولكن تجديد نفوسنا يتوقف فى الاغلب على نظام العقل والخلق ونبذ طباع القطيع وأهم ما يكون مثل هذا النظام فى زمن الكهولة والشيخوخة خاصة. اذ يبدو أن دؤوب الجسم والعقل على العمل يرجىء نزول الشيخوخة. والعمل أجدى من الكحول والمورفين فى احتمال الشدائد والبطالة تضاعف جميع الآلام. ومجهود العقل المتطاول العنيف يسم الانسان بسمة لاتزول

ان العمل ينشط الوظائف البدنية والعقلية كلها وكلما عملت العضلة ازدادت نماء فالعمل يقويها ولا يوهن قوتها. والعضو اذا أهمل ضمر وذبل والذكاء والاخلاق كالعضلات والاعضاء تذبل من قلة التمرين فبذل الجهد أمر لاغنى عنه للانسان كى يبلغ غايته من الرقى والتهذيب.

الشخصية وكيف تتكون

الشخصية أو الذاتية هي تلك الصورة أو السمة المادية والمعنوية التي يتكون ويتشكل ويتجدد بها الرجل أو المرأة في المجتمع وأمام نفسه وأمام الناس وخيال التاريخ فيعرف الانسان بها فيقال : هذا رجل شجاع أو مهيب أو عظيم أو عالم أو أديب أو فني أو مستقيم نزيه أو كريم أو قوي الخلق أو بخيل أو دني، واهن الخلق .

وعلى هذا لكل انسان في محيطه الخاص أو المحيط العام سمة يعرف بها بين الناس ويشيرون به اليها أكثر من تميزه باسمه. وحسبنا أن نذكر أن عظيم أمريكا بنيامين فرانكلين كان يؤمن بأن الشخصية القوية تعين صاحبها على النجاح وقد وضع لنفسه دستوراً خاصاً سماه « دستور الشخصية » واتبعه منذ صباه. وهذه هي نصوص دستوره :

١ ـ لاتفرط في الطعام والشراب الى حد التخمة ولا تتعاطى المكيفات . و٢ ـ لاتتكلم إلا لكي تفيد نفسك أو غيرك و٣ ـ نظم عملك ووقتك واستفد من أوقات الفراغ . و٤ ـ فكر ملياً قبل أن تقدم على التنفيذ . و٥ ـ لاتنفق مالك الا فيما ينفعك واقتصد في الكماليات . و٦ ـ لاتضيع وقتك وجهودك في اللهو والعبث و٧ ـ تجنب

الخداع وكن صريحاً وعادلاً . ٨ - اد واجبك فى عينه و بكل اخلاص واحترم آراء الناس ولاتخطىء محدثك . و٩ - لاتتطرف فى آرائك ولاتتعصب لها ولاتحمل فى نفسك اساءة الى غيرك وكن دائما حسن النية قوى الثقة بنفسك وبمن تتعامل معهم و١٠ - اعتن بنظافة جسمك وملبسك ومسكنك و١١ - لاتثر لأتفه الأمور بل كن رصيناً وتحكم فى اعصابك وحافظ على رباطة جأشك وكن هادئاً حتى فى أحرج الظروف . و١٢ - لاتتبذل ولاترتكب الموبقات ولاتفعل مايخل بالشرف والكرامة وحافظ على سمعتك وكن متواضعاً .

قوانين مراحل الشخصية

١ - ان اول شعور يحسه كل كائن حى هو شعوره بما ينقصه منذ عهد الطفولة فالطفل لايستطيع الكلام او السير او مقاومة الجوع اذا عضه فى حين يستطيع ذلك والداه وغيرهما من البالغين القادرين ومن هنا ينشأ فى الطفل الشعور بعدم اكتماله ونقص كفايته فتنطلق قواه الذهبية تدعمها قابلية آلية لاشباع حاجاته ورغباته .

٢ - وهدف الكائن الحى نحو الاكتمال ينشأ فى اللاشعور خلال دور الطفولة لأن الوعى الكامل لايكون قد وجد بعد ولايزال هذا الهدف يساير الناس كلما نما وتم وعيه حتى يكتمل نموه وفى بعض

الأحيان يتخذ الهدف شكلا خياليا كأن يطمح المرء إلى المجد والعظمة أو أن يصبح من أصحاب الملايين أو يرحل فى آفاق العالم سعياً وراء الإلمام بكل شىء فيه

٣ - وهدف الفرد يمثل فى العادة تعويضا كاملا لنقص كفايته ، حتى يعادله أو يزيد عليه

وتتمثل فكرة الهدف . بالنسبة الى الطفل ، فى شخص يرى أن فيه قوة وكمالا ينقصانه ، فالفقير يرى الغنى فيريد أن يكون مثله . والطفل الضعيف المضطهد يرى نفسه فيما يرى النائم رجـــلا بدين الجسم واسع الثراء ؛ والطفل المصاب بقصر النظر يريد أن يدرس كل شىء عن النجوم !

٤ - وهدف الفرد فيما يتعلق بأنموذج حياته سبق نضج قواه . فهو لهذا قد يمثل تعويضا لنقائص تبدو أنها موجودة أو يتركز فى هدف مثالى يظهر لليافعين أنه ناقص غير مكتمل

فأهدافنا فى الحياة تتشكل اذن طبقا لتفسيرنا الخاص لنقائصنا أو فكرتنا الخاصة عن التقدم ولا تعتمد على حقيقة هذه النقائص أو حقيقة ذلك التقدم

٥ - وحياة أى فرد نموذج لتطور من حالة يعتقد أنها ناقصة الى هدف يراه كاملا . وتثبت فكرة الهدف فى اللاشعور وتفعل فعل المغناطيس فى جذب حركات الانسان الى تيارها

فالطفل الصغير يتمنى أن يصبح من رجال أطفاء الحريق لأنه ساخط على حالته الصبيانية ويرى فى لهيب النيران وآلات الأطفاء حالة كمال تليق به والأقزام يودون لو أصبحوا عمالقة والعمالقة لايفكرن أبدا فى أن يكونوا

أقزاما فالحياة الانسانية اذن تتطور من ضعف متصور الى قوة مفترضة

٦ — والكائن الحى لايستطيع أن يفعل شيئا يخرج به عن أنموذج تكوينه وهذه الحقيقة هى التى تحكم كل شىء فى عالم الطبيعة: فالأفيال لاتنقلب فى نموها الى طيور كما أن أشجار التفاح لاتثمر برتقالا . وفى علم النفس قانون عظيم الأهمية هو « الوحدة الكاملة للنموذج الفردى » فكل شىء نفعله أو نفكر فيه أو نخافه أو نتجنبه يجب أن يكون منسجما مع وحدة النموذج الفردى وهذا هو السبب فى أن الأحلام وذكريات الطفولة وريا ضتنا المحببة وملابسنا التى نرتديها وهواياتنا وزوجاتنا وغير ذلك يجب أن تتفق والنموذج نفسه .

وعلى هذا الأساس تستطيع أن تكمل شخصية أى انسان من خمس وقائع هامة أو ستة ومن هنا نرى أنه لاحاجة بنا الى التحليلات الطويلة التى تعمد اليها مدرسة التحليل النفسى فهى — الى جانب خطئها وخطرها — تربط المريض الى قيد من الابحاث غير المجدية عن ماضيه . ويفوت المحللين أن نموذج الشخصية يمكن تحديده بعد جلسات قصيرة لبضعة أسابيع حتى ولو كذب المريض على من يعالجه فالناس قد تعلموا الكذب بالألفاظ ولكنهم لايقوون على الكذب فى عوارض انفعالاتهم أو فى أحلامهم أو فى الطريقة التى يكتبون بها . كما أنه لو تعارضت كلماتهم مع أعمالهم اللاشعورية فان الاعمال اللاشعورية دائما هى الاساس الحقيقى الذى يكشف عن شخصيتهم

٧ — يتحدد هدف الحياة منذ الطفولة المبكرة مالم يتغير مجرى هذا النموذج بواسطة تجربة أو تحليل نفسانى منتظم أو زيادة فى معلوماته . وقد

تتعرض فكرة الهدف لكثير من التعديلات كلما كبر الفرد ، ولكنها لاتتغير تغييراً أساسيا .

وقد بدأ يحلل نفساني حياته طامحا فى أن يكون مدربا للحيوان ! . ولما تمت معارفه فى الحياة رغب فى أن يكون قائدا لفرقة موسيقية وبعد ذلك درس الطب وفى نفسه رغبة الزعامة بين عشيرته وأخيرا تخصص فى التحليل النفسانى ، فهذا التخصص الأخير يمثل السلم النهائى لتطور فكرة هدفه منذ بدايتها

٨ - أن الكائنات الحية قد عاشت وستظل تعيش أبدا فى جماعات . وفى هذا معنى تعويض الجنس البشرى عن الضعف الفردى بين أعضائه . ويعيش الفرد فى بدء حياته عالة على جماعة صغيرة هى أسرته حتى ينمو ويكبر وبذلك تدفع عنه أكبر نقائص الطفولة وينمو الطفل ويتطور موجها هدفه وقوته الى اكمال هذه النقائص بحيث يكون مفيدا للمجتمع الذى أنبته

٩ - والانسان يكيف تجاربه دائما بما ينسجم وأنموذج حياته :

وقف ثلاثة رجال مرة أمام شجرة كبيرة فقال أحدهم : أستطيع أن أنشىء قاعدة جميلة اقاربى من جذع هذه الشجرة . وقال الثانى : أستطيع أن أصنع مئات الأحذية من ألياف هذه الشجرة

فالرجال الثلاثة قد واجهوا حادثا واحدا ولكن كلا منهم قدره التقدير الذى يتفق وهدف حياته وأنموذجها

١٠ - وثمة فى الحياة ثلاث مشكلات يجب أن يحلها الفرد وهى مشكلات الجماعة والعمل والناحية الجنسية

ولما كان التداخل فى الحياة الانسانية عظيما فقد لا تيسر حل هـذه المشكلات. وإخفاقنا فى حل أية واحدة منها سيجعل من يخلفنا حملا أثقل ، فضلا عما فى ذلك من التخلف عن موكب الحياة وقد يتعلل البعض بالقاء التبعة على غيره وفى ذلك خداع للنفس وتهرب من المسئوليات . والمصدر الحقيقى لذلك هو الخوف والجهل

١١ - ان الأداة التى يستخدمها الفرد فى تحقيق هدفه فى الحياة تعبر عن سلوكه وشخصيته والانسان الكامل تتوافر فيه صفات الشرف والاخلاص والنزاهة والثقة بالنفس والكرم والشجاعة ، لأن هذه جميعا أفضل وسائل الوصول الى هدف السعادة الانسانية

وفى اللص تنمو صفات الخيانة وعدم الشرف والفظاظة ، لا لأنه ولد وهو هذه الصفات ولكن لأنها من مستلزمات طريقته فى الحياة

والكشف عن صفة واحدة فى الفرد لا يعرفنا بسلوكه وهذا يشبه استحالة تفسيرنا لالحان قطعة موسيقية كاملة ونحن لا نعرف الا أوزان « نوتة » واحدة

١٢ - وأخيرا .. فان السعادة هى نتيجة الكمال والنجاح الانسانى .. والفرد الذى يكمل نقائصه بشكل اجتماعى ناجح يحصل على السعادة التى لا يمكن أن تجىء مصادفة وهى تتوافر لك اذا استطعت وأنت يافع أن تحول نقائص طفولتك الحقيقية والمفترضة الى نواحى تقدم لها قيمتها الاجتماعية

وعنصرا السعادة الأساسيان هما الشجاعة والمعرفة والطريق الوحيد الى بلوغها هى الذوق السليم والعمل ؛ والحب والخيال ، ولطف المعشر ..

أثر الحياة الجنسية فى الشخصية

يقول الدكتور أدوين باورز فى مجلة « فيزيكال كالتشار » والثقافة الطبيعية » أن الافرازات الباطنة للغدد الصماء وما يصحبها من أثر سحرى عنيف فى المخ والجهاز العصبى بل فى سائر وظائف الهضم وتكوين الدم والخلايا من الناحية العامة. هذه الافرازات لاتحكم الحركات والانفعالات فحسب بل تتحكم أيضا فى الحياة الجنسية والخلق والمزاج خيرا كان ذلك أم شرا

وترجع معرفتنا بهذه المواد الكيمائية والوسائل التى بها تحكم تغيرات الخلايا العجيبة المعقدة إلى نصف قرن مضى . على أن الطريق قد شق قبل ذلك فى مجاهل النظريات ثم تبين فى وضوح وظيفة الغـــدة الدرقية ، إذ استطاعوا عزل المواد المعقدة التى تسيطر على افراز هذه الغدة . كما عرفت تفاعلاتها الكيمائية وأصبح أثرها فى إحداث الشذوذ والنقص ثابتا . وقد كشف الستار عن بعض أسرار الغدة التحامية والادرينالية والبنكرياس والثايمية والغدد الجنسية .

ويبدو على ملامح الافراد بل الاسر والشعوب والاجناس مايدل على اخلقهم الذى يرجع الى إفرازاتهم الباطنة مما ييسر لنا أن نصنف فى وضوح لافراد والاسر والاجناس طبقا لهذه الصفات المميزة . والواقع أن البيان الخاص بالافرازات الباطنة لأى فرد من الافراد يصلح مقياسا لذلك الفرد فى معرفة الطابع الاجتماعى والجنسى والجسمانى الذى ينتسب اليه .

وهكذا فنحن سنتهي عاجلا إلى النتيجة الآتية بالنسبة إلى الشخصية الانسانية وهي أن الشيء الدقيق الذي يميز بين شخص وآخر على وجه هذه الأرض يرجع إلى حد كبير إلى الاختلاف القائم في مميزات وخصائص الافرازات بين فرد وآخر

ونستطيع أن ندرس التاريخ ، على وجه الاطلاق ، في ضوء خصائص الغدد الدرقية لهؤلاء الذين أشرقت صفحاتهم في التاريخ ، أو تركوا صحائف سوداء بأعمال العنف والشر . فالعباقرة العظام في جميع العصور أمثال هوميروس ، شكسبير ، ميخائيل انجلو ، ليوناردو دافنشي ، بيكون ، والمنحطون ، لنكولن ، يتميزون في مجموعات خاصة بينما كاليجولا ونيرون وأتيلاس يدخلون جميعا في صنف يعرفه في وضوح طالب علم الغدد . والشواذ من طراز الوافه من الناس ، والأفراد الذين يبدو عليهم صفحات واضحة كالسادية وحب التعذيب ، أو انحرافات جنسية ، ينتسبون إلى طراز ذوي الغدد الدرقية الشاذة . وكثيراً ما يتخلصون من ذلك الشذوذ بتنظيم افراز للغدة الدرقية .

وأكثر الأمراض شيوعا في أمريكا وهو النورستانيا ذلك المرض الذي ينعكس في صفات واضحة على شخصية المرء تمتد جذوره دون شك إلى إجهاد الغدة الادرينالية . وكان داروين مثلا بارزا لآثار هذا الانهاك كما كان أيضا هربرت سبنسر الذي قيل عنه بحق إنه حيوان مسكين بل في الحيوانات لفقره في « الادرينالين » .

ولو أن أحداً من هؤلاء العباقرة كان موجودا اليوم وأراد أن ينمي فقر

الادرينالين لكان من المؤكد استفادتهم من الاستعمال الحكيم لخلاصات الادرينالين وغيره من الغدد

وشواذ الغدة النخامية كثيرو الشيوع وتتدرج أعراضهم من الصداع الشديد إلى الصرع العنيف وكان يوليوس قيصر أحد الامثلة البارزة على هذا النقص . ومن المثل الآخرين بيرون وفلوبير ودستوفسكى . ويؤدى نقص افراز الغدة النخامية كذلك الى أنماط ثابتة عند من يتميزون بوقف النمو أو « الصبيانية » كما يسمى أى العود إلى الطفولة . وقد يصحب نقص الاردينالين انيميا ظاهرة (فقر الدم) مما يلون الفكر كما يؤثر دون شك على شجاعة الفرد . وكلنا يعرف ماذا يعنى اصطلاح « الدمويين » بينما من جهة أخرى يحمل اصطلاح « الصفراويين » صورة أخرى معينة . على هذه الشاكلة ترتبط تعبيرات معروفة بانحرافات فى الغدد الأخرى بما فى ذلك الغدد الجنسية .

ودراسة خصائص الغدد الصماء لكثير من المشهورين وغير المشهورين من رجال التاريخ ، تلقى بعض الضوء على الأثر البعيد للغدد فى الشخصية . كانت غدة نابليون النخامية فى غاية الضبط ، ويبدو هذا واضحا فى بروز ملامحه وقوة فكه وترسل شعره الفاحم وسمرة بشرته وليونة يديه الصغيرتين وكل أولئك أدلة لطالب علم الغدد عن طبيعة الاثرة فى الرجل

ويؤيد التقرير الذى وضعه الدكتور هنرى بعد تشريح جثة نابليون على نقص الغدة النخامية أو اختلال وظيفتها قبيل وفاته . وفى ذلك التقرير يقول : كان الدهن يغطى سطح الجسم كله بطبقة عميقة وقد بلغ سمك الدهن بوصة فوق عظام الصدر إذ تكون العظام بارزة على وجه عام ، وبلغ بوصة وبوصة ونصف بل بوصتين فوق البطن . ولم يكن لشعر الجسم وجود

أما شعر الرأس فقد كان رقيقا وقليلا وناعما أما الجهاز التناسلى فكان صغيرا جدا مما يدل على وجود علة جسمية فى فقدان الرغبة الجنسية وفى الصفة الظاهرة التى امتاز بها الفقيد فى أثناء إقامته بجزيرة سانت هيلانه . ومن الملاحظ رقة الجلد ونعومة بياضه وكذلك اليدين والذراعين . والحقيقة أن الجسم كان ممشوقا ونسائيا . أما عضلات الصدر فصغيرة جدا ، والكتفان ضيقان ، والحوض واسع »

هذا الوصف يدل فى دقة على التغير البارز الذى يصحب الخنث ولعلنا لانعدو الحقيقة اذا قلنا إن تلك الطبيعة الانثوية هى التى تترتب على عجز الغدة النخامية عن العمل الصحيح

وصحيح ماأورده الدكتور روبين فى كتابه البديع « انتخاب الأجناس والغريزة الجنسية » ذلك أن المسلم به عامة الآن أن الافرازات الباطنة للخصيتين والمبيضين لها من الأثر فى تشكيل الخلق والشخصية عند الفرد أكثر مما لجميع الغدد الأخرى مجتمعة

وجميع الجهود البشرية فى الابتكار ترجع من أحد الوجوه الى انعكاس الغريزة الجنسية أو السمو بها وليس فى تاريخ العالم أجمع مثل واحد بارز لأثر فنى فى الشعر أو البناء أو التصوير أو النحت أو السياسة أو المال ابتدعه مخنث . وربما كان فى التاريخ الحربى أحد الشواذ لهذه القاعدة . وهو القائد « مملوك » الذى كان يخدم عثمان

ويمكن القول أيضا - مقررين فى ذلك احدى الحقائق - أن النساء اللاتى صنعن التاريخ كانت رغباتهن الجنسية مشبعة . وفى الواقع فان كثيرا منهن مثل كاترين دى مدسيس وكاترين امبراطورة روسيا لم تكن لرغباتهن

الجنسية نهاية هذا وإن أوساط الناس الذين يبدون سبباً سليما لصحبة الجنس الآخر مع سبب طبيعي للأطفال وتقدير صحيح لروح الزمالة ، هؤلاء يكون ميلهم الجنسي سليما ، أما رقة النساء وغومة صوتهن واستدارة صدورهن واعجازهن ولطف طبيعة الأمومة فيهن ، كل هذه الصفات البادية للعالم أجمع كما هي بادية لأطفالها ، فهي أثر من آثار نشاط المبيضين

فذلك الذي نعته بلفظ « الشخصية » إن هو في نهاية الأمر إلا الوظيفة القوية للحياة الجنسية . ونستطيع أن نتبين هذا في وضوح ، في الجاذبية القائمة بين الجنسين وفي الشخصية البارزة

ويؤدي اختفاء النشاط الجنسي الى الأثرة والى ميل خاص إلى مايسمى بالسادية . وهذا النوع من الناس يقف في معارضة كل مظهر لنشاط الجموع والجماهير

وظهور شهوة التعذيب عند بعض الرجال ترجع الى فقدان الرجولة . وأصحاب الشفا ، الدقيقة والشعر القليل الذين يرفعون عصا العدالة على الظهور العارية لهؤلاء الذين يعدونهم خارجين على القانون تسعة وبسعون في المائة من طواز ضعاف الشهوة الجنسية

ويحدثنا كرافت ايبنج ، وشرنك نوتزنج ، وغيرهما من علماء النفس وكذلك اتباع مذهب فرويد بأن القسوة والوحشية وعدم التسامح والغباء وهذه الصفات الدالة على هذا الطراز من الناس ، إنما هي تعبير عن النقص أو العجز في الغريزة الجنسية تجد تعويضها في هذه الأعمال

وهكذا نرى أن الشخصية وخصائص الحياة الجنسية ، كلاهما يرجعان الى

حد كبير الشاطئ الفضة السماء ويصحب الانحراف في وظائف الغدد الصماء - كما رأينا في حالة نابليون - تغيير خطير جدا قد يحول الرجل الى مخنث

كيف تكتسب الاصدقاء

لما كان « كتاب كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس » لمؤلفه « ديل كارنجي رئيس معهد كارنيجي للالقاء المؤثر والعلاقات الإنسانية » بمدينة نيويورك ومؤلف كتابي « المخطابة » و « وحقائق مجهولة عن المشاهير » قد اشتهر في عالم التأليف ، فقد آثرنا أن نلخص هنا أهم مافيه . ذاكرين أنه في الثلاثين عاما الماضية درب ديل كارنيجي أكثر من ١٥٠٠٠ من رجال الأعمال والمهن الحرة ، بينهم لفيف من أشهر الناس ؛ على المخطابة وسياسة الناس وبلغ من عظم فائدة مناهجه في دوائر الأعمال أن شركات مثل « شركة وستنجهاوس للكهرباء ومصنوعاتها » و « شركة مالك بجرو - هيل للنشر » و « شركة تليفونات نيويورك » أدخلت هذا التدريب في مكاتبها لأعضائها وموظفيها ومجالس إداراتها . ويقول المؤلف : « إن هذا الكتاب لم يكتب بالمعنى المألوف . وإنما نما وتكون من تجارب آلاف من البالغين في فصولي . » ومن « خزان » هذه التجربة الواسعة النطاق تدفقت ثروة من دروس المذكرة والحصافة في العلاقات الانسانية ، خص بها كتابه « كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر في الناس »

وقد تحدث تحت عنوان « النقد عقيم » قائلا : في مايو سنة ١٩٣١ قبض على مجرم سفاح مشهور اسمه « كراولي ذو المسدسين » بعد أن حاصره مائة

وخمسون من الشرط المسلحين بالمدافع الرشاشة وقنابل الغازات. فقال مدير بوليس نيويورك : إن هذا العيار « بتشديد الياء » من أخطر المجرمين فى تاريخ نيويورك. وقال : « إنه يقتل لأهون سبب وأتفه باعث »

ولكن كيف كان كراولى « ذو المسدسين » ينظر الى نفسه ؟ إنه كتب رسالة عنوانها هكذا : « الى من عسى أن يعنيه هذا » فى حين كان الشرط يطلقون النار عليه فى حجرته وفى هذه الرسالة يقول : « ان تحت ثيابى قلباً معذبى ولكنه رقيق ـ قلباً لايطيب له أن يمس أحدا بأى سوء »

وقبل ذلك بوقت قصير كان كراولى يتنزه مع صاحبة له فى طريق خلوى حيال « لونج أيلند » فأقبل شرطى على السيارة الواقفة وقال : « هات رخصتك » فما كان من كراولى الا أن أخرج مسدسه بلا كلام ورمى الشرطى فأرداه

وقد حكم على كراولى بالإعدام على الكرسى الكهربائى . ولما جىء به إلى غرفة الاعدام فى سجن « سنج سنج » لم يقل : « هذا جزائى على قتلى الناس » وانما قال : « هذا جزائى على دفاعى عن نفسى »

ومغزى هذه القصة هو أن كراولى « ذا المسدسين » لم يلم نفسه على شىء ما

فهل هذا هو الموقف المألوف بين المجرمين ؟ اذا كان هذا ظنك فاستمع الى مايقوله المستر لوز مدير سجن سنج سنج : « قل بين المجرمين من يعد نفسه رجلا سريراً ، ومن أجل هذا يذهبون الى أنه ما كان ينبغى أن يسجنوا ، ويصرون على ذلك بكل مافى طاقتهم من قوة »

وإذا كان الاشرار الذين تحيط بهم جدران السجون ، لايحملون أنفسهم تبعة شىء ما ـ فما الرأى فى غيرهم ممن نحتك بهم نحن ؟

أما أنا فقد ذميت أتعثر نحو ثلاث قرن قبل أن أتبين أنه فى كل ٩٩ مرة من مائة ، مامن رجل يأخذ على نفسه شيئا ما ، وأن النقد هيب لأنه يدفع المنقود الى اتخاذ موقف الدفاع ويحمله عادة على الاجتهاد فى تسويغ ما فعل

والنقد أيضا خطر لأنه يجرح كبرياء المرء ويسيء الى شعوره بقيمته وشأنه ويثير امتعاضه ونفوره

وقد اتفق لى وأنا فى مقتبل العمر ، أيام كنت أحاول أن ألفت الأنظار إلى نفسى أن كتبت رسالة سخيفة إلى ريتشارد هاردنج دافيز ، وكان يومئذ مؤلفاً مشهوراً ، وكنت أعد مقالا لإحدى المجلات ، عن المؤلفين ، فرجوت من دافيز أن يفضى إلى بطريقته فى العمل . وكنت قد تلقيت قبل ذلك رسالة فى آخرها هذه الحاشية : « أمليت ولم تراجع » فوقعت الحاشية فى نفسى موقعاً عميقاً ، وشعرت أن الكاتب لابد أن يكون كثير العمل عظيم الشأن . ولما كنت أريد أن أقع فى نفس ريتشارد هاودنج دافيز هذا الموقع ، فقد ختمت رسالتى إليه بهذه الحاشية « أمليت ولم تراجع » .

ولم يتكلف دافيز قط أن يرد على رسالتى واكتفى بأن يعيدها إلى وعليها هذه العبارة : « ان سوء أدبك لايفوقه الا سوء أدبك » . ولاشك أنى كنت أستحق هذا التأنيب ولكنى بشر ولهذا امتعضت . وبلغ من شدة استيائى أنى لما قرأت نعيه بعد ذلك بعشر سنين كان الذى لايزال يخامرنى ويدور فى نفسى - ويخجلنى أن أقول ذلك - هو الألم الذى أورثنيه .

وينبغى أن تذكر فى معاملتك للناس أنك لاتعامل أهل منطق بل أهل عواطف وشعور ونفوس حافلة بالأهواء ، يسيرها الكبر والغرور . وإذا

كان همك أن تثير غداً عداوة تبقى على الأحقاب وتدوم مادامت الحياة فما عليك إلا أن تجرى لسانك بشيء من النقد اللاذع - بالغة ما بلغت ثقتك بأنك على صواب فيه :

لقد كان بنيامين فرانكلين كثير فلتات اللسان وعثراته فى شبابه فراض نفسه حتى صار حصيفاً كيساً لبقاً فى معاملة الناس حتى اختير سفيراً لأمريكا فى فرنسا . أتريد أن تعرف السر فى نجاحه ؟ قال : « لن أذكر أحداً بسوء وسأحرص على أن أتكلم بكل ما أعرفه من خير عن كل انسان »

ولقد قال الدكتور جونسون . « ان الله ياسيدى لايحاسب الانسان لا بعد انتهاء أجله »

فلماذا أفعل أنا وأنت غير ذلك ؟

يقول الأستاذ جون ديوى - أعمق فلاسفة أمريكا : « ان أقوى دافع فى الطبيعة البشرية هو الرغبة فى أن يكون المرء شيئاً مذكوراً » فتذكر هذه العبارة « الرغبة فى أن يكون المرء شيئاً مذكوراً » فانها جوع ملتهب لايسكن ولايفتر ، وهـــذه الرغبة هى التى أغرت كاتب البقال الفقير غير المتعلم - ابراهام لنكولن - بأن يدرس القانون وهى التى ألهمت ديكنز أن يكتب رواياته الخالدة وهى التى تغريك بارتداء أحدث الازياء وبطلب وظيفة أرقى وبالتحدث عن بنيك الاذكياء

ويتمارض بعض الناس أحياناً ليفوزوا بالعطف والعناية والالتفات وليفيدوا الشعور بأن لهم قيمة ويذهب بعض الثقاة الى ان بعض الناس يصيبهم الجنون فعلا ليجدوا فى عالم الاحلام الذى يتيحه الجنون ذلك الشعور بالاهمية الذى حرموه فى عالم الحقيقة القاسى

فاذا كان هذا مبلغ ظمأ الناس الى الشعور بالاهمية فتصور المعجزات التى نستطيعها اذا نحن لم نبخل عليهم بالتقدير المنصف ! ان الانسان النادر الذى ينسمه أن يسكن هذا الجوع النفسى يسمه أن يضع الناس فى راحة يده

لقد كان أندرو كارنيجى ـ ملك الصلب ـ ينقد شارلز شواب مرتباً سنوياً لم يسبق له نظير مليون ريال فهل كان ذلك لان شواب يعرف عن صناعة الصلب أكثر مما يعرف سواه ؟ كلام فارغ ! فقد أخبرنى شواب نفسه أنه كان معه رجال يعملون له ، ويعرفون عن الصلب فوق مايعرف هو ، وأنه إنما كان يتقاضى هذا المرتب لقدرته على معاملة الناس . وماالسر فى ذلك ؟

قال شواب : « إنى أرى أن قدرتى على إثارة الحماسة والغيرة فى النفوس أعظم ماأمتاز به . والتقدير هو الوسيلة إلى ابراز خير مافى الإنسان . فما قتل الطموح فى نفس الإنسان كالذم من رؤسائه . لهذا تراني أتوخى أن أطرى وأكره أن أذم . وينقضى أن أعرف رجلا ـ مهما بلغ من رفعة المحل ـ لايكون عمله أجود ، وجهده أعظم ، بفضل الإطراء دون الذم » .

وكان التقدير المخلص من أسرار نجاح روكفلر فى معاملة الناس . مثال ذلك أن أحد شركاء ـ ادوارد بدفورد ـ جر على الشركة خسارة بلغت مليون ريال فى صفقة خاسرة عقدها فى أمريكا الجنوبية ولو شاء روكفلر لعاب وذم ، ولكنه كان يعلم ان بدفورد فعل أقصى مايدخل فى طوقه ومن هنا وجد روكفلر مايثنى عليه فهنأ بدفورد لأنه استطاع أن ينقذ ٦٠ فى المائة من المال الذى ثمره . قال « هذا بديع ! ولسنا نحسن أن نفعل مثل فى مكاتبنا هنا »

والحقيقة أن كل رجل تلقاه تقريبا ، يشعر أنه خير منك ويفوقك فى شىء ما ، فالطريق الى قلبه هو أن تدعه يدرك أنك تعرف قيمته ولا تنكرها إننا نغذى أجسام أطفالنا وأصدقائنا ، ولكن ما أقل ما نغذى احترامهم لأنفسهم

كلا ! لست أشير بالملق فان الملق جدير بأن يمقت عادة . والملق من طرف اللسان ، أما التقدير المخلص فمن القلب

فلنكف عن التفكير فيما صنعنا وفيما نحتاج اليه ، ولنحاول أن نفطن إلى مزايا الغير ، ولنوف هذه المزايا حقها من التقدير الخليه المخلص فان الذى يظفر بذلك منك يظل يذكره على كر الأعوام على حين تكون أنت قد نسيته

قال إمرسون : « إن كل رجل ألقاه يفوقنى من ناحية ما ، فأنا لهذا أتعلم منه » .

تحتاج فى غد أن تقنع بعضهم بأن يفعل شيئا ما فتذكر قبل أن تتكلم أنه ليس ثم سوى وسيلة واحدة تحت قبة هذه السماء لحمل أى إنسان على فعل أى شىء وهذه الوسيلة هى أن تجعله « يريد » أن يفعل الشىء

وقد كان أندرو كارنيجى أستاذا حاذقا فى التأثير فى الناس ، وذلك بأن يتحدث اليهم بما يحرك فيهم إرادة العمل . مثال ذلك أن أخت زوجته كانت شديدة القلق على ولديها فى الكلية فقد أهملا أن يكتبا اليها ولم يعيرا رسائل أمهما التفاتا . فعرض كارنيجى أن يراهن بمائة ريال على أن يغريهما بالرد مع البريد الراجع من غير أن يطلب ذلك منهما فقبل بعضهم الرهان منه فكتب اليهما رسالة لطيفة ، وذكر عرضا فى حاشية أنه أرسل لكل منهم

خمسة ريالات غير أنه أمل أن يرسل المال .

فجاءه الرد برجع البريد .

وقد نبهت هذه الحيلة باعثاً يعد إذا قيس إلى غيره ، غير كريم ، ولكن من الممكن فى كثير من الأحيان التأثير فى الناس بتنبيه أسمى البواعث المكنة . وقد حدث أن رأى اللورد نورثكليف صورة له فى جريدة لم يكن يريد أن تنشر فكتب إلى رئيس التحرير رسالة ولكن هل قال له فيها : « أرجو أن لاتنشر هذه الصورة مرة أخرى فلست أرضى عنها » ؟ كلا ! بل أيقظ فى نفس المحرر الاحترام الذي ينطوى عليه جميعا الأمومة فكتب يقول : « أرجو أن لاتنشر صورتى هذه مرة أخرى فان أمى لاتحبها »

ولما أراد جون د . روكفلر الصغير أن يكف مصورو الصحف عن رسم أبنائه لم يقل لهم : « لاأريد أن تنشر صورهم » كلا بل نبه إلى حرص الكامن فى نفوسنا جميعا على اتقاء مافيه أذى للأطفال فقال : « انكم تدركون الباعث لى ، فان لكم أبناء وإنكم لتعرفون أنه ليس من مصلحة الصغار أن تكثر الدعاية لهم »

كان اتشارلز شواب مدير مصنع لاينتج رجاله ماينبغى أن ينتجوه فسأله شواب . « كيف اتفق أن رجلا فى مثل اقتدارك لايستطيع أن يجعل هذا المصنع ينتج مايجب أن ينتج ؟ »

قال الرجل . « لاأدرى فقد حاورت العمال وداورتهم وحضضتهم ولمتهم ولكنهم يأبون أن يزيدوا على مايفعلون » وكان هذا فى آخر النهار « قبل أن يجىء عمال الليل .

فقال شواب : « أعطنى قطعة من الطباشير » ثم التفت إلى أقرب رجل وسأله : « كم أخرجتم اليوم ؟ » .

قال : « ستة » .

فلم ينطق شواب بكلمة ، وانحنى فكتب بالخط الكبير رقم «٦» على الأرض بالطباشير وانصرف . فلما أقبل عمال الليل رأوا رقم «٦» وسألوا عنه ماهو معناه فقال لهم عمال النهار : « كان صاحب المصنع هنا اليوم ، وسألنا عن إنتاجنا فقلنا ستة فخطها بالطباشير على الأرض » وفى صباح اليوم التالى دخل شواب فى المصنع فإذا عمال الليل قد محوا رقم «٦» وخطوا مكانه «٧» بالخط الجليل .

ولما جاء عمال النهار رأوا السبعة الكبيرة على الأرض فقالوا لأنفسهم : إن عمال الليل يظنون أنهم خير منا !! حسن ! سنريهم ! وعكفوا على العمل بحماسة وغيرة ؛ ولما انصرفوا فى المساء تركوا وراءهم «١٠» ضخمة . ومالبث المصنع ، الذى كان يتلكأ فى إنتاجه ، أن صار ينتج فوق ماينتج سواه .

ولماذا ؟ قال شواب : « ان الوسيلة لحمل الناس على العمل هى إثارة روح التنافس ؛ ولست أعنى التنافس الذميم الذى غايته الحصول على المال ، وإنما أعنى الرغبة فى التفوق » .

وفى سنة ١٩١٥ لما صمم وودرو ولسون على إرسال رسول

سلام الى سادة الحرب فى أوربا ، أراد وليم جنجو برايان ، وزير الخارجية وداعية السلام ، أن يكون هو الرسول . ورأى أن هذه فرصة أتيحت له لتخليد اسمه ، ولكن ولسون عين الكولونل هاوس ووكل اليه أن يبلغ برايان ، وهى مهمة شائكة . وقد كتب هاوس فى يومياته يقول : « لقد كان من الجلى أن برايان خاب أمله ، ولكنى بينت له أن الرئيس رأى ان ليس من المصلحة ان يتولى هذه المهمة أحد رسميا ، وان ايفاده (برايان) يلفت الأنظار لفتاً قوياً ، فيروح الناس يتساءلون عن السر فى قدومه » .

فهل ادركت المعنى الذى تنطوى عليه هذه العبارة ؟ ان هاوس يقول لبرايان انها اكبر جداً من هذه المهمة . وقد رضى برايان وارتاح ، ذلك ان الكولونل هاوس الحاذق الخبير بالدنيا واهلها يجرى على قاعدة مهمة فى العلاقات الإنسانية : اشعر غيرك السعادة حين يعملون ماتقترح عليهم .

وقد حدث فى مأدبة أن قص الجالس الى جانبى قصة اقتبس فيها هذه العبارة : « ان هناك قدراً يصوغ مصائرنا كائناً ما كان ماتفعله نحن فى تدبيرها » وزعم انها من الإنجيل وكان مخطئاً ، فصححت له خطأه واظهرت انى أعلم منه ، ولكنه أصر على زعمه . من شكسبير ؟ كلام فارغ ! انها من الإنجيل . وكان الى يسارى صديق قديم لى وقد درس شاكسبير درساً وافياً ، فاتفقت انا وصاحب القصة ان نطرح الخلاف

عليه ، فأصغى صديق ثم ركلني برجله من تحت المائدة وقال : « انك مخطىء يا ديل . وهذا السيد مصيب . فان العبارة من الإنجيل » .

ولما كنا في طريقنا تلك الليلة الى بيوتنا ، قال صديق على سبيل الإيضاح . « لاشك أن الكلمة من شكسبير يا ديل ، ولكننا كنا ضيوفاً في مأدبة بهيجة ، فلماذا تحاول أن تثبت لرجل أنه مخطىء ؟ اتظن أن هذا يجعله يستلطفك ؟ لماذا لاتدعه وشأنه ؟ ثم انه لم يطلب رأيك فلماذا تجادله ؟ اتق دائماً الزاوية الحادة » .

« اتق دائماً الزاوية الحادة » لقد كانت في حاجة شديدة الى هذا الدرس ، لأني كنت مغرى بالجدل ، وقد جادلت أخي في شبابي في كل شيء تحت السماء ، ودرست في الكلية المنطق والمناظرة ، ثم صرت أعلمهما في نيويورك . وكانت النتيجة أني انتهيت الى ان ثم وسيلة واحدة لإقامة الحجة وانهاضها ، وهي أن تجتنب اقامتها ! ففي كل تسع مرات من عشر ينتهي الجدل بأن يعتقد كل من المتجادلين أشد اقتناعاً بأنه هو على حق ، ولا تستطيع أن تفوز ، لأنك اذا انتصرت على خصمك فانك تخسر ، لأنك ان تكسب قط رضاه وطيب طويته .

وقد قال وليم م . ماك أدو وزير الخزانة في عهد رياسة وودرو ولسون انه تعلم من السنوات الحافلة التي قضاها في السياسة : « أن من المستحيل أن تقهر جاهلا بالحجة » وما أرى الا ان المستر ماك ادو قد آثر القصد ، فان تجربتي تنبئني انه يكاد يكون من المستحيل ان تحمل

أي رجل - بغض النظر عن علمه أو جهله - على تغيير رأيه بالجدل .

مثال ذلك أن المستر فردريك س . بارسونز ، وهو مستشار فى الضرائب ظل ساعة يجادل مفتشاً للضرائب وكانت المناقشة على ٩٠٠ ريال . يقول المستر بارسونز انها دين ميت ويقول المفتش ان ضريبتها يجب أن تجبى .

قال المستر بارسونز : « كان هذا المفتش جامداً ومتعجرفاً وعنيداً وكان يزداد عناداً كلما طال الحوار وأخيراً قلت له : « أحسب أن هذه مسألة تافهة بالقياس الى المسائل المهمة الصعبة التى تعالجها وتبت فيها . وقد درست موضوع الضرائب ولكن معرفتى بها مستمدة من الكتب . أما معرفتك فمستفادة من خط نار التجارب . وانى لأتمنى أحياناً أن يكون لى مثل وظيفتك فانها خليقة ان تعلمنى كثيراً مما اجهل » وكنت مخلصاً فيما قلت فاعتدل المفتش على كرسيه واضطجع وطفق يتكلم طويلا عن عمله وحدثنى عن غش كثير كشف عنه . وصارت لهجته ودية شيئاً فشيئاً وما لبث ان حدثنى عن بنيه : ولما هم بالانصراف قال لى انه سيدرس موضوعى مرة اخرى ثم يبلغنى رايه بعد بضعة ايام . وعاد بعد ثلاثة ايام وقال لى انه قرر ان يترك الأمر على ماهو مدون فى ملفه » .

لقد كان هذا المفتش يبدى ضعفا انسانيا شائعا جداً فقد كان مطلبه الشعور بأنه ذو شأن وخطر فلما كان المستر بارسونز يجادله كان

هو يرضى شعوره بقيمته بتقرير سلطته وتعزيزها . فلما اقر له بارسونز بقيمته وطمأنه من هذه الناحية وانقطع الجدل وتيسر له ان يوسع نطاق ذاتيته انقلب انساناً عطوفاً رقيقاً .

وقد كففت عن القول لأحد انه مخطىء والفيت ذلك نافعاً فان المنطقيين قلة واكثرنا متحيز منكوب بآراء سابقة يعتنقها . وقد نعترف فيما بيننا وبين انفسنا بالخطأ وقد نقر به لغيرنا اذا عالجنا برفق وحكمة بل قد نباهي بصراحتنا ولكننا لا نفعل ذلك اذا حاول بعضهم ان يرغمنا على ازدراء الحقيقة غير السائغة .

حدثنا فرنكلين فى ترجمته بقلمه كيف تغلب على عادة الجدل القبيحة ، وكيف عالج نفسه حتى صار من أقدر الساسة فى تاريخ أمريكا . وقال انه حين كان شابا كثير العثرات انتحى به صديق قديم ناحية وقال له : « اسمع يا بنى ، ان آراءك كأنها سياط تجلد بها كل من يخالفك ، وان اخوانك ليطيب لهم العيش حين تغيب عنهم ، وانك لتبدو أعلم من أن يستطيع أحد أن يعرفك بشيء بل انه ما من أحد سيحاول ذلك لأنه جهد لا يثمر الا المتاعب فأنت لا يحتمل أن تعلم أكثر مما تعلم الآن وهو قليل جدا »

وكان فرانكلين حصيفا عاقلا فأدرك أن هـــذا حق فتحول . قال : « اتخذتها قاعدة لى أن أجتنب كل معارضة لآراء غيرى وكل تقرير لآرائى بل حرمت على نفسى أن أستعمل لفظا يدل على رأى مقرر أو مفروغ منه مثل « على التحقيق » أو « بلا شك » وصرت أقول « أحب أن الأمر كيت

وكيت » أو « ان هذا يبدو لى كذلك فى الوقت الحاضر » . وان قال غيرى قولا أراه خطأ ، فانى أحترم نفسى لذة الاعتراض عليه جهاراً واظهار ما ينطوى عليه من غلط فاذا أجبته بدأت بأن أبين أن رأيه يصدق فى حالات معينة ، ولكنه فى الحالة الراهنة يظهر أن هناك شيئاً من الاختلاف

« وصار هذا فى النهاية عادة راسخة حتى انه فى خمسين عاما تقريبا لم يسمع أحد منى عبارة تقريرية . وأعزى هذه العادة مضافة الى التزاهة يرجع الفضل فى أنه كان لى تأثير فى مواطنى ، حين اقترحت مشروعات جديدة أو تنقيحا فى مشروعات قديمة كما يرجع اليها الفضل فى نفوذى فى المجالس العامة »

اذا كنت مخطئا

اذا وقعت فى خطأ فكثيرا ما ينفعك أن تبادر الى الاقرار به . كان فرديناند وارين رساماً تجاريا فلجأ الى هذه الوسيلة لاكتساب رضى مدير فى شكس . حدثنى وارين قال : « بعثت اليه حديثا برسم رسمته بسرعة ، فطلب منى بالتليفون أن أحضر اليه فى مكتبه على الفور ، فلما حضرت عنده كان ما توقعته . فألفيته ساخطا ومغتبطا بالفرصة التى أتيحت له الإنحاء على باللوم وسألنى محدة . لماذا فعلت كذا وكذا ؟ فلجأت الى خطة جديدة وقلت . « لقد أخطأت وليس لى أى عذر ، فانى أرسم لك من زمن طويل فكان من الواجب أن لا أغلط وإنى لفى خجل شديد »

فقاطعنى قائلا . « ان أية غلطة قد تصبح باهظة الكلفة . وكان ينبغى أن أكون أشد عناية وسأرسم هذا من جديد »

يرفض قائلا . لا لا لا . انه لا يخطر لى أن أبتسم لك كل هذا العناء ، وأنى على عمل وأطراء وأكد لى أنه لا يريد الا تغييراً طفيفاً لا يستحق كل هذا القلق . ذلك أن نقدى لعملى ، استل غضبه ، وقبل أن أنصرف ناولنى شيكا وركل الى عملا آخر .

ضمير المفرد المتكلم

هل تريد أن تكتسب أصدقاء ؟ إذن كن ودودا وانس نفسك ، فليس الناس بمعنيين بك وانما هم معنيون بأنفسهم صباحاً ومساء . وقد درست شركة تليفونات نيويورك الحوار التليفونى ، لتعرف أى الألفاظ أكثر دورانا على الألسنة فاذا هو الضمير « أنا » فقد استعمل ٣٩٠٠ مرة فى ... محادثة تليفونية « أنا » ، « أنا » ، « أنا » .

وهذا هو السبب فى أنك تستطيع فى شهرين اثنين ، اذا أظهرت العناية بأمر غيرك ، أن تكتسب من الأصدقاء أكثر مما تكتسب من الأصدقاء أكثر مما تكتسب فى عامين طويلين ، اذا حاولت أن تجعل الناس على العناية بأمرك أنت .

وكان هذا هو السر فى الشهرة العجيبة التى فاز بها ثيودور روزفلت فقد زار روزفلت البيت الأبيض يوما ، ولم يكن الرئيس تافت وزوجته هناك ، فبدأ حبسه الصادق لصغار الناس من تحيته لكل خدم البيت الأبيض القدماء بأسمائهم ، حتى الخادمات اللواتى يغسلن أوانى المطبخ .

كتب ابنه يقول . « ولما رأى أليس خادمة المطبخ سألها عن فطائر الذرة

ألا تزال تصنعها ، فقالت انها تصنعها أحيانا للخدم ولكنه لا يأكلها أحد من العلية »

« فقال روزفلت . «هذا يدل على فساد ذوق وسأقول هذا للرئيس حين أراه » .

« فجاءته بقطعة على طبق فذهب الى المكتب وهو يأكلها ويحيي البستانية والعمال وهو يمر بهم ولا يزال هؤلاء يتذاكرون ذلك اليوم وقد قال خادم والدمع يحول فى عينيه . « لقد كان ذلك أسعد يوم مر بنا فى عامين كاملين »

وكان مثل هذا الاهتمام القوى بأمور الناس هو الذى جعل الدكتور تشارلز ايليوت مدير جامعة هارفارد من أنجح من تولوا إدارة الجامعات . حدث ذات يوم أن طالبا جديدا — ل . ر . ج . كراندون — قصد الى مكتب المدير ليقترض ٥٠ ريالا من صندوق الطلبة فأعطاه ما طلب . قال كراندون . « ثم التفت الرئيس إيليوت وقال . « تفضل واجلس » وأدهشنى حين استطرد يقول . « لقد قيل لى انك تطبخ طعامك وتتناوله فى غرفتك . وأرى أن هذا حسن اذا حصلت على الطعام الصالح وعلى الكفاية منه وقد كنت أنا أفعل هذا فى زمن التحصيل . فهل صنعت قط فطيرة بلحم العجل انها من خير الأطعمة اذا أتممت انضاجها ، لأنه لا شيء يضيع منها سدى . والطريقة التى كنت أصنعها بها هى هذه . . . » ثم مضى يخبرنى كيف أختار اللحم وكيف اطبخه على مهل وبحيث يترك التبخر الحساء كالهلام ثم كيف أقطعه وأضغطه بين وعائين أحدهما فى الآخر ثم آكله آخر الأمر باردا ،

أفترى يكون هذا الأسلوب صالحا نافعا فى الأعمال المالية والتجارية ؟

ان فى وسعى أن أورد عشرات من الشواهد

كان تشارلز وولترز من رجال مصرف كبير فى مدينة نيويورك فكلف أن يعد تقريرا سريا عن شركة معينة . وكان لايعرف سوى رجل واحد عنده مايبغى من العلم وهو الرئيس . فلما أدخل وولترز عليه فى مكتبه أطل رأس فتاة من الباب وقالت إنه ليس عندها له اليوم طوابع بريد أخرى

قال الرئيس على سبيل البيان « انى اجمع الطوابع لابنى وهو فى الثانية عشرة من عمره » .

وشرح وولترز غايته من الزيارة وبدأ يلقى أسئلته فجاءت الاجوبة غامضة عامة وكان الحديث وجيزاً عقيما .

فلم يدر المستر وولترز ماذا يصنع ثم تذكر أن القسم الخارجى من مصرفه يجمع الطوابع من الرسائل التى يتلقاها من قارات الأرض جميعا

قال وولترز . « وفى عصر اليوم التالى زرت الرجل مرة أخرى وبعثت اليه أنبئه أن معى طوابع لابنه . فجاءنى بوجه مشرق الديباجة وجعل يقول وهو يتناول الطوابع . « سيعشق جورج هذا وتأمل هذا .. انه كنز ! »

« وقضينا نصف ساعة نتحدث عن الطوابع ثم أفرد لى أكثر من ساعة يفضى الى بكل ما أريد الوقوف عليه حتى من غير أن أسأله »

فاذا كنا نريد أن نكتسب أصدقاء فلنعن بأن نصنع شيئا للناس — شيئا يتطلب وقتا ونشاطا وحصافة